الدكتور السعيد الورقي

الأعمال الكاملة

(١)

رحلة منتصف الليل

قصص قصيرة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

صدرت الطبعة الأولى ١٩٦٥

الطبعة الثانية

١٩٨٩

رحلة منتصف الليل

قصص قصيرة

أرزاق



هيه ... مصيرها الفرج . لم يجبه بأكثر من هزات لامبالية من ذيله . نظراته قلقة تبحث عن شيء ما . أحصى ماتبقى معه ، همهم بصوت مكتوم .

انحدرت عينا القرد فمسحته صاعدة هابطة ، الطول الممصوص والملامح المتشابهة . إنها الألفة بلاشك .

أهمل جذب السلسلة . الخيط الواصل بينهما . جلس قبالته فتساوى رأساهما . طرح الدف جانبا وارتاح من حذائه وهو يتحسس أصابع قدميه . رمقه بنظرة مذعورة ، فالخيزرانة لاتزال فى متناوله . وعجين الفلاحة ونوم العازب والفلاح بعد أن باع قطنه . لم تعد الفلاحة تعجن ، والعازب ، هل تراه لايزال ... أنت مازلت أعزب . أيقلده عندما يطلب منه نوم

العازب . ابتسم للفكرة ، وفلاح الغفلة لم يعد . الأمر بلاشك فى حاجة إلى تجديد . هل يقوم بهذا التجديد. تذكر ألم ساقه ففردها أمامه ، وتحسس الشعيرات المتبقية . بلع ألمه كل شىء أصبح محتاجاً إلى التجديد . ماعادت الحلقات كعهده بها . يتطلعون إليها كشىء متخلف من عصور بعيدة . باخت النكات والحركات. ينظرون اليهما بشفقة ساخرة . نقودهم أصبحت شحيحة ، والأطفال مشغولون والكبار يهرلون ، والسيارات لاتتوقف . الذعر يتنقل بين عينىّ القرد فى حركة السيارات والناس . لكن ماذا يعمل . لم يفكر فى يوم من الأيام أن يترك هذا العمل . لم يعرف سواه. فكر قبل هذا أن يتركه . لكن إلى أين . لعل التجديد هو الحل ، لكن كيف ، هل يؤدى هو الحركات بدلا من القرد ، وماذا يصنع القرد ... ابتسم رغما عنه وأزاح الفكرة جانبا .

تحسست أصابعه كسرات خبز مبعثرة فى جيبه . بحث عن السجائر والثقاب . أشعل واحدة وجذب نفساً عميقا ... نوم العازب ... لم يعد يملك سواه ، ولا أمل له فى أن يتغير ... قالت له ابحث لك عن عمل محترم ومكان محترم وسرّح القرد وسوف تتغير الأحوال ودّ لو يفعل هذا لكنه لم يستطع . ألف المكان والصحبة ، ولم ترض أن تربط حياتها بحياة رجل

وقرد . طلب كوباً من الشاى من المقهى المجاور . امتصه على مهل . سقطت عيناه على عينى القرد . تقابلتا فى منتصف الطريق ، أشاح بوجهه وزاغت عينا القرد . وإلى أين يذهب ، إنه لايعرف هو الآخر أحداً سواه . ومع أنه كثيراً مايتعرض منه للأذى والضرب ، الا انه يراه دائما متشبثاً به . قد يثور أحيانا . وقد يرفض القرد الامتثال . لكنهما يتقابلان فى النهاية . الشاى الساخن له لذة ممتعة مع سحابات الدخان . لعق ذرات تفل الشاى ولم يعد بالسيجارة مايذكر ... كل شيء قارب على النهاية ، الشاى والسيجارة والعمر . القرد هو الآخر أصابه الزمن بوهن ملحوظ . مضى زمانكما بلاشك .

تحرك القرد فى حذر . أصبحت المسافة بينه وبين صاحبه مناسبة . بين جذب المارة وفرد كفه كانت عيناه تهتز بخوف يترصد عين صاحبه . وضع أحدهم فى كفه شيئا حرك انتباهه أكثر . قبض كنزه إلى صدره . تململ فى جلسته . لم تكن لديه أشياء محددة ، وأن بدا له المستقبل محفوفاً بالمخاطر . على الأقل لايطمئن . أشعل سيجارة جديدة . بحث عن قرده . لابأس . أبتعد قليلاً ، لكنه لايزال قابعاً فى حزنه المعهود . كم كان متقافزاً جسوراً ، أتعبه كثيراً فى تدريبه . والآن لايتوقف عن

هز رأسه الساقطة بين ساقيه . هل تعود الأيام . كانت بسمتها صبحاً مشرقاً . هل كان حباً أم كان شفقة . كثيراً ماجادت عليهما بالأطايب من المأكل والمشرب ولم تضن بالمال . كانت حلوة ، كم رطبت بسمتها صهد الأيام . لم تكلمك ، ولم تكلمهما لكن نظرتها قالت أشياء كثيرة . فجأة اختفت ، لم يعرف أين ذهبت فكر كثيراً فى أن يسأل عنها ، لكنه تردد . من يسأل وكيف وبماذا يعتذر . تكفلت الأيام بكل شيء وجرفه تيار الحياة ولم يعد منها سوى لمحة الخاطرة تستدعيها المناسبة ... أين القرد ... لايزال كما هو قابعاً فى مذلته الأبدية ، ودخان السيجارة يصنع حلقات عشوائية. جذب القرد بائع الفاكهة الذى برزت عربته قليلاً فى الشارع الرئيسى . صاحبه يتوارى فى ظلها . تلفت البائع اليه ، ناوله القرد قطعة النقود التى حصل عليه خلسة من أحد العابرين، أشار إلى الموز . وعاد بلفة منه بين يديه . نظر إلى صاحبه من جديد ، كان لاهيا عنه . وضع لفافة الموز بين قدميه واستدبر صاحبه .

من زمن البلادة

ماشاء الله ... نصف الحصة قد انتهت وحضرتك بالكاد مشرف !!... اضطرب قليلاً هل يقول السبب لكن أى الأسباب يبدأ بها وأيها يؤخره الزوجة الأولاد. القطار الذى لم يصل . طاعة الرؤساء واجبة ، واحترامهم حق وحدهم الذين لهم الحق . لاحق له فى شىء

ولأنه لايملك سوى الاصغاء ، تشاغل بالعبث بأصابعه ، ابتلع طعم المرارة ولم يعد يسمع شيئا مما يقوله الناظر . الناظر يصيح فيه وأولاده يصيحون فيه وزوجته تصرخ فيه والناس فى القطار . هل يمكن أن يناصبه كل هؤلاء العداء يذكر أنه كان يرد عليهم . كان ذلك فى زمن مضى. كان وقتها متحمساً بلاشك . الآن لايهم ، فليصرخ من يصرخ وإذا كان لابد

من الرد فعبارات مبهمة مقضومة تفى بالغرض ... الأمر لله ، اذهب إلى الحصة يا أستاذ .

يدرك تماماً أن الأمر لن يقف عند هذا الحد ، فلابد من استجواب ... ولماذا تأخرت ... و ... و . بعدها تحتسب نصف الحصة بنصف يوم من الاجازة العارضة الناظر محق فى هذا ، فأنت قد أخطأت ، ومادمت قد أخطأت فلابد من أن تنال جزاء ذلك . كل هذا لاغبار عليه . لكن المشكلة أن الاجازة العارضة قد انتهت ، والأرجح أن نصف اليوم هذا سيكون خصماً على الراتب ... ليكن مايكون إذن .

المدرسة فى قرية تبعد عن مدينتك نصف الساعة بسرعة هذا القطار اللعين إذا كان موفقا . غالباً مايتأخر أو يتعطل . ويكون مالابد منه . زجر الناظر وصياحه ثم الاستجواب . كان البرد شديداً ، إنها طوبه اللعين ، والوحل فى القرية يعوق الحركة الطبيعية . كان الحذاء محملاً بكتلة طينية سميكة أراد أن يبعدها ، شغله صراخ التلاميذ فى الفصل ، هم الآخرون ملاعين . شياطين صغار . فى الفصل نهض البعض للتحية متثاقلا ، وأبدى البعض ترددهم ولم يبدو على الآخرين أنهم شعروا بشيء فقد ظلوا على ماهم فيه . من زجاج النافذة المكسورة لسعة خيط حاد من هواء بارد فتابع المشهد

المألوف . لعلها الساقية الوحيدة التى لاتزال تعمل فى القرية ، وربما فى القرى المجاورة . ماكينات الرى تقوم الآن بالمهمة أفضل وأسرع . لشيء ما فى نفسي هذا المزارع ظل محتفظا بالساقية وثورها . كان الرجل قابعاً فى ركن أشبه بالمخبأ وبين الحين والآخر يخرج يده بكرباجه مطرقعا فى الهواء ، فيواصل الثور دورانه . كان المشهد مؤلما وملعونا بقدر ماكان مسلياً . لاتظن أن الناظر يتسامح فى عذر اليوم ، فليست له علاقة بالزوجة أو بالأولاد أو بالقطار . لاتعتقد أن هناك علاقة بين شيء وآخر من هذه الأشياء . لكنهم جميعا اتحدوا ضده ، تآمروا لذبحه . ملعونون أيها الأوباش . وهؤلاء الملاعين ، ذرية ابليس على الأرجح ، لايعرفون شيئا ، ولم يبد منهم علامات تدل على قرب فهم . فيهم ملامح من الناظر . هل جميعهم سيكونون نظاراً ، وسيكون هو المدرس الوحيد فى مدرسة النظار هؤلاء ... اعمل هذا ... لاتعمل هذا ، تعال . اذهب . مهما شرحت لهم يقولون انهم لم يفهموا ... لاتعرف ، متى سيفهمون ، ولا تعتقد انهم سوف يفهمون . وصراخ زوجتك لايتوقف ، وصفير القطار لايتوقف ، وهذا الثور الملعون هو الآخر لايتوقف . صراخ جديد ... من ... ماذا يقول هذا الملعون هو الآخر . المفتش فى حجرة ناظر

المدرسة ، ينتظر ... لينتظر إلى ماشاء الله . وهذا الأخير ، ما الذى أتى به واليوم ، وكأنما كانت الأمور ناقصة هذا المفتش . مفتش ليفتش وعلى من . والناظر يفتش عنك وزوجتك تفتش جيوبك والتلاميذ يفتشون الفراغ عن شيء لاتعرفه ، وأنت تفتش عن نفسك ، والحياة تفتيش . قالها أحد المشاهير مرة ، لكن بشكل آخر . أظن ... فتش عن المرأة .

تدلت رأسه على صدره ، عيناه بين فردتى حذائه الأجرب ، بدا كما لو كان نائما ، وقد انسدلت رابطة عنقه . بدا معها كلباً انتزعته الأولاد لتوه من بركة الطين وقد استكان إلى الحبل الذى شدوه إلى عنقه .

دبت الحركة فيه للحظة ، استجمع فيها شيئا من القوة ، وبصق بصقة عنيفة من زجاج النافذة المكسورة . كان الثور لايزال أمامه غارقاً فى زمن البلادة فلم تكن طرقعات سيده تغير شيئا ذا بال فى حركته . هذا الرجل الملعون والثور هو الآخر ملعون .

نبه التلاميذ إلى الواقفين بباب الفصل ، المفتش بلاشك ، والناظر معه ومن الآخر هذا ، البيك فراش المدرسة وساعيها ودائن الجميع بالمال والشاى والطعام ، اللعنه عليه هذا

الشيطان الحقير ، مسلكه قريب من مسلك زوجتك وتعتقد أن بينهما مشابهات كثيرة .

أشار إلى التلاميذ بالنهوض للتحية ، هل يدخل معهما الساعى أيضا . تراجع الغبى وفى عينيه شماتة ساخرة ، تعرفها جيداً . لم يبال أحدهما بمصافحتك كما يحدث غالبا ، ليس مهما . سيطلب منك الآن كراسة اعداد الدروس ، وسيسأل عن السبورة الخالية ، وسيتأفف من فشل التلاميذ وعجزهم عن الاجابة ، وستنتهى المهزلة بكلمات عن الواجب والضمير ومراعاة الزمة . الا تعرف أن ذمتك هى الأخرى منعدمة أيها الأفاق ... ماذا أعطيتهم هذا الدرس يأستاذ ، وتحول ببصره بين السبورة والناظر ووجه التلاميذ الذين نكسوا رأسهم فى تخاذل . يبدو أنه لم يكن ينتظر اجابة إذ تابع فى آلية ، كراسة اعداد الدروس ، تحاول أن تتذكر أين فقدتها ... فى المنزل ... ربما ... فى القطار ... ربما فى حجرة المدرسين . احتميت بالبلادة ولم تنطق ، وانسحبت إلى الجدار بجوار السبورة ، ترغب فى أن ينتهى المشهد بأى شكل . أحس برغبة شديدة فى أن يتجشأ ويبصق بصقته المعهودة ، لكنه أرجأها . منذ قليل زجرك الناظر ، وقبلها خرجت مشيعاً باللحن اليومى .

لاشك أن الناظر معذور ، وزوجتك هى الأخرى معذورة ، فالأيام قاسية لاترحم وليس أمامها سواك ، وأبناؤك جرأتهم الحاجة والتعود . يا أستاذ . يا أستاذ ... هل غفا قليلا فى وقفته هذه . مسح الجميع بنظرة آلية ، والتقطت أذناه شيئا حول الأمانة والعمل والرسول ... وخارج النافذة كان الثور الأعجف يهز رأسه فى آلية متمرسة.هز رأسه هو الآخر فى ابتسامة بلامعنى ... لابأس ، فعن قليل يسدل الستار ، ولتكن النتائج كما تكون .

لقـــــاء



الساعة الآن التاسعة والنصف . مازال أمامى متسع من الوقت . أعتقد أن نصف الساعة الباقية تكفى ، ونظرة أخيرة إلى المرآة . كل شيء على مايرام .أمامك لايزال ربع الساعة بأكمله . هذه هى المرة الأولى ، والموعد الأول . مع أنى تجاوزت الخمسة والعشرين ، واشتهى النساء دائما ، لكنها المرة الأولى التى يكون فيها موعد بينى وبين فتاة . لا أعتقد أن الأمر يرجع إلى حياء يغلب على طبعى ، فأنا على ما أعتقد متبجح قليلاً . تنط عيناى أمام كل مايبرز من امرأة ، لكنى ربما لم أكن أجيد مداخل الحديث . وعندما قررت أن أكون صريحا كانت المفاجأة بسيطة على نحو لم أكن أتصوره . قلت لها سأنتظرك الساعة العاشرة ، وافقت ، المشكلة، التى

أصبحت تؤرقنى هو ماذا أفعل وإلى أين أذهب عندما تأتى بالطبع . لكنى كنت دائما انتهى إلى أنها لابد وأن تنتهى بشكل ما . هل تورطت . يمكـــنك العـــدول . ولا تذهب إذن . أروع مافيها ضحكتها الوثابة . تبدو كلها ضحكة كبيرة . فكل شيء فيها يضحك ، ربما كان اسمها بسمة. الغريب انك لم تفكر فى أن تسألها اسمها . وماذا يهم ، ليكن اسمها أى اسم ، فماذا تعنى الأسماء .

كنت قد وصلت المكان وأنا أعتقد أنها تجاوزت العاشرة ، كانت الساعة العاشرة إلا عشر دقائق ، لايزال إذن أمامك متسع . مقبل أنت الآن على تجربة غامضة ومثيرة ، ويمكنك التراجع إذا أردت . لاتعرف بالضبط ماذا يسعد فتاة ، ماذا يجعلها تتشبث بك ، أو حتى تسعد بصحبتك . ربما نزهة وغذاء وحديث ناعم موشى بالدانتلا البيضاء ، والعاشرة الا خمس دقائق الآن. مسحت عيناك آخر المدى . ليست بينهم . لكنها قالت ستحضر . كانت لهجتها صادقة ، ففيها براءة صادقة لايخطئها أحد . قفزت فى مرح طفولى وهى تدندن بلحن شائع . كانت تشرب العالم من راحتيها ، وأجابت بصدق غير مبالغ ... قطعاً ، سأحضر .

ولماذا قطعاً ، ربما كانت تدبر لك شيئا ، ليس بهذه السهولة تتم الأشياء.وهى لم تحضر بعد ، ولاتزال خمس دقائق قائمة ، والفرصة ماضاعت بعد . وعلى كل ماذا يمكن أن تخسر إن هى جاءت . لديك تحديد واضح لحدود الأشياء ولاتظن أنه من السهل أن تغدر بك هى أو غيرها .

العاشرة الآن ، يجب أن تكون قد حضرت ، لكنها لم تكن قد ظهرت بعد . أنا متأكد أنها وافقت ، وعلى الساعة العاشرة . هل معقول أن تكون ... لا أظن هذا ، لقد أجابت بالقبول ، وأقسمت أن ستجىء . قد يكون حدث لها مكروه ، وربما تكون ناسية ، وها هو القلق يبدو على خطواتك . لقد أخطأت بالمجىء . وكانت الفرصة أمامك . فاتت الآن ويجب أن تجىء . العاشرة والربع . ربع الساعة مضت . زمن من القلق وضيق الصدر . لاشك أن وقفتك هذه جذبت أنظار المارة ، لايكفون عن الحملقة فيك . هل يبدو علىّ أنى أنتظر فتاة . أغلب الظن هذا وهو ما أدركه السائرون . أيتها الشيطانة الصغيرة . ماذا فعلت لك حتى توقعينى فى هذا الحرج . لاشك أننى الآن فى موقف لا أحسد عليه . لقد كانت أمامك الفرصة لكى تفوت عليها هذا ، ولم

يكن الأمر يحتاج إلى كل هذه المعاناة ، لكنك أردت أن تجرب ، فأنت المسئول إذن .

ليست جميلة كما ينبغى ، لكنها مقبولة ، وضحكتها هذه ليست بالأمر الذى يستحق كل هذا العناء ... فقط لو تجىء . للخيبة مذاق شديد الأسى ، وطول عمرى فى حالى لا شأن لى بالنساء . ولم تأت بعد . انتشرت نظراتك تمسح الواقفين والعابرين ، والعاشرة والنصف . وسيطر عليك يأس فاشل ، وطعم مر المذاق فى حلقك ، وكان من الأوفق أن تفطن إلى أنها لن تجىء . لم تعد تبالى بنظرات الناظرين ، فلينظر من ينظر ، وليشمت من يشمت . هكذا يكون أول لقائك مع هذه التى لم تعرف بعد اسمها . لكنها وافقت على الحضور عن طيب خاطر . هل ترحل الآن فمن المستبعد أن تجىء بعد العاشرة والنصف . كان الموعد فى العاشرة ، وقد مضى نصف الساعة ولم تحضر . تريد أن تنتظر قليلاً فلربما جاءت . تعرفت بها فى ظروف ضيقة.وتعرف انك لست بالمحدث البارع مع النساء ، تكتفى بالنظر وتدارى ارتباكك فى حركات قلقة . لاشك أنها لم تجد فيك مايشجعها على الاستمرار . فقط لو تجىء ، تتركها وهى تمد يدها لمصافحتك وتذهب . هكذا

يكون الانتقام . قاربت الساعة على الحادية عشرة ولايبدو فى الأفق بصيص أمل . وبدأت أشعر بحرارة الشمس ولسعاتها ، وطعم الأسى ازداد مرارة ، وأحسست بالظمأ . وزجاجة من المياه الغازية تروى الظمأ وتمتص بعض الوقت . مع الرشفة الأولى أشرق كل شىء ، أمسكت عن الشرب ، وضعت الزجاجة مكانها ، وفى خفة رشيقة تحتضن كل شىء أسرعت الخطو ، انها هى برشاقتها المرحة وضحكتها المتوثبة ، وابتسامة عريضة أخفت كل الأسى . مددت كلتا يدى ... وصباح الخير ... صباح الخير ، وسرنا عصفورين متقافزين فى روضة غناء .

كنا أربعة رجال



حرارة الشمس تكوى ، والرمال الملتهبة تبتلع الأقدام بلا رحمة ، الدماء متناثرة على الرمال هنا وهناك . تزكم رائحتها أنفاسك . والرياح الساخنة سياط عذاب ، وأبريق بين يديك .

على الأرض ثلاث جثث ، لاتزال الدماء تقطر منها . أنت الآخر تنزف الدماء منك من أماكن متفرقة ، وثمة أشياء تلمع ببريق . تنعكس عليها أشعة الشمس . إنها المدى بلاشك .

أين الرفاق ... الرفاق ... ثلاث جثث مطروحة أرضا ، شربت الرمال ماسال من دمائها ، لم تترك سوى اللون الصابغ بقع الرمل .

من أيام خلت لم أتذوق طعاماً ، ولا شراباً . ضللنا الطريق منذ أيام . معى رفاقى الثلاثة ، كنا عائدين سيراً ... حرارة الشمس نهاراً ألسنة نارية من فم التنين الأحمر ، والليل البارد يجمد عظامنا ، تبدو حركاتنا مبعثرة فمن الصعب السيطرة على الأطراف . والظلام كهف للديناصورات العملاقة ، تلعق بألسنتها وجوهنا . وتهجس الأصوات المسافرة صفيراً ثاقباً ، وتسمع أصوات انفعالاتك ، مع أول ضوء للنهار يطغى الجوع على كل شيء والأرض فضاء منبسط،لا أثر لمعالم الحياة بها ... سماء مطبقة على رمال ... كنا أربعة رجال ضللنا الطريق فى متاهة الصحراء ، بلا طعام أو شراب ، والسير بقدر جهدنا وبحجم غول الخوف الذى يلتهم أمننا . إلى أين ، لانعرف . مع بداية الرحلة كان علينا أن نتجه غرباً ، فاستدبرنا شمس الصباح ، ومضت أيام ولم نصل لشيء . فقدنا البداية ، ولم نستطع أن نتوصل إلى نهاية ، جفت شفاهنا وتشققت . والعطش السنة نارية تمزق أحشاءك . قطرة ماء . الحياة قطرة ماء. حطام الابريق بين يدى شاهد مع الجثث المطروحة أرضاً والمدى . أصابعى تقبض على بقايا الابريق فى عصبية متعسرة . كنا أربعة رجال ضللنا الطريق . أخذنا نسير ونسير . نلتمس النجاة . ليس فينا من يعرف عن الطريق أكثر

من زميله . كان الموت هو أول شيء خشيناه . بعدها خشينا الخوف ... رمال الصحراء تتحرك . تكبر الحبات وتكبر وتكبر . حبة الرمل كرة شمسية تتحرك وحدها وتتحرك فى مجموعات . يا إلهى ... إنه الموت يزحف ببطء وباصرار . فى الليل نتلاصق أكثر ، نترقب . واللحظات زمن ثقيل لايتوقف . يشدنا النوم للحظات تخطف ، وذراع الرفيق هلع تنينى مفزع . الأمور تتعقد بتوالى اللحظات ، الأمن والطعام والشراب . ثقلت عيناك ، وأصبحت لاتنظر إلا لأسفل ، والرمال تجذب قدميك فى ثقل هائل ... ثلاث جثث مطروحة أرضا وبقع الدماء الحمراء متناثرة على الرمال وحطام الابريق أوصال مرتعدة ، والرؤية سحابة سوداء فى دوامة تبتلعك . كنا أربعة رجال ضللنا الطريق فى الصحراء وأخذنا نضرب على غير هدى نتلمس النجاة . شربة ماء. كل أصبح فى أمس الحاجة اليها ، والفضاء أطياف تتراقص ، تبتعد بقدر مانقترب ، ولهيب من فوقنا وتحتنا . ماذا لو جلسنا فى انتظار الموت . ما أحوجنا إلى الرحمة . تخرجت من الجامعة منذ شهور ، قضيت سنوات الدراسة ولازلت فى سنة أولى حياة على حد تعبير زملائى ، خجولاً منطوياً ، عالمى بين المسجد والكلية والمنزل ، وظيفتى المذاكرة . يوم سألتنى زميلة فيها

شيء من الجرأة عن مفهومى للحب ، يومها تصبب العرق متلعثما واضطربت حمرة وجنتاى ولم يفتح الله علىّ بقول . وتخرجت فى الجامعة ويومها تمنيت أن أعود إليها مرة أخرى ، فقد علمتنى شهور مابعد التخرج أضعاف ماتعلمته فى سنى حياتى السابقة كلها . كان أول تغيير هجرتى للمسجد . الرحمة الآن هو ما احتاجه . وربما كان هذا حال الرفاق . هل تصلون . وهل هذا وقته . لنصلى الآن إلى الله علنا نهتدى إلى شاطىء نجاة . ما نحن فيه غضب إلهى — والله وحده هو القادر على اخراجنا من هذه الكارثة . منذ أسبوع فقط جاء والدى من البلدة للزيارة . قبلها كانت عندى فى الشقة فتاة وشراب . هل أديت العشاء ؟ ليس بعد . قادنى إلى الصلاة خلفه بين قلقى واضطرابى . ياشيخى الطيب أنا ماعدت الابن الذى تعرفه . اعوض الآن سنوات الحرمان والكبت . كى تعيش الحياة يجب أن تحبها ، وأنا أسعى إلى حب الحياة . انهم قوم باعوا دنياهم واشتروا حياة أخرى . والخيام يقول شيئا آخر . كأس خمر وساق فى روضة أحب من الجنة التى وعدت بها ، لاتسمع من أحد حديث جنة أو نار ... من ذا ذهب إلى الجنة ، ومن ذا عاد من الجحيم . يارفاق مانحن فيه انتقام من الله . ليخلصنا الله من تلك الورطة . ياإلهنا ، يارب

الجوع والشبع ، جوعنا شديد وظمؤنا أشد . لن يبحث عنى أحد خلال شهر على الأقل . ما أجمل أن يكون للإنسان منزل وأحباب يلقاهم ولو فى آخر النهار . يبحثون عنه ، يسألونه أين كنت وإلى أين تذهب ... وجثث الرفاق مطروحة فوق الرمال ، ونثرات الدم تلمع مع المدى تحت أيدى الشمس ، وحطام الابريق بين يدى متشنج . كنا أربعة رجال ضللنا الطريق تحت سماء مشتعلة وفوق رمال مشتعلة . صحنا فى تهالك . كانت أشياء حقيقية هذه المرة لم تبتعد ، اقتربت كلما اقتربنا ... يا إلهنا ، كسرات خبز وأبريق . ماء . تجاذبته أكف ثمانية ، أخرج كل منا سلاحه الأبيض . تجاذبت القوى المسلحة الابريق . وسالت الدماء . ثلاث جثث مطروحة أرضا ، وحطام الابريق بين يدى والمشهد بشاعة محرقة . جثوت على الرمال أحاول ايقاف الدماء التى تسيل منى — انتزعت بعض المزق من الاخرين أوقف بها نزف الدماء . علىّ أن أسيطر على نفسى بقدر ما أستطيع . أن أتماسك ، نهضت مخلفاً المشهد خلفى . كنا أربعة رجال ضللنا الطريق فى متاهة الصحراء . الآن ، نحن واحد ، إلى الأمام أو إلى الخلف ، لايهم . وعلىّ أن أتابع المسير .

غداً يوم آخر



نهار القرية يزحف نحو الغروب . الرجال عائدون إلى منازلهم جماعات والنسوة أمام البيوت فى حلقات حديث ضاحك ، عند بداية المنعطفات ونهايتها جماعات الصبية يركلون الحجارة الصغيرة ويمتطون عيدان الحطب . تابع سيره فالمنزل فى نهاية البلدة . كان عائداً فى اجازته الشهرية. يمكث شهراً فى المعسكر وأسبوعا اجازة يقضيه بالبلدة بين عمه وزوجته وابنته رفيقة العمر ونبض القلب . كيف هى الآن ، شهر من الشوق واللهفة ، ورحلة عمر مابين ركل الحجارة والطوق والعصا والعريس والعروس وجبال الملح . كبرتما الآن . تقضى الآن فترة تجنيدك وتتفجر أنوثتها طرية تحت الثوب المزنوق.أنت لها وهى لك . هكذا كنتما ، وبهذا وعدك

عمك . الزفاف بعد انتهاء فترة التجنيد . والليلة الموعودة حلم
الليالى الطويلة فى المعسكر . يتوسد الشعر الليلى شعر صدرك
الخشن . تشتعل الرغبة فى داخلك ويثور البركان . ونعومة
بشرتها ضوء من صبح مشرق . ركل مع الأطفال حجارة
الطريق . ابتسم للنساء . صافح الرجال دون أن يتوقف .
أرادوا أن يستوقفوه ، كان يريد أن يسرع أكثر . لم يتوقف .
تحسس زجاجة العطر ، مرت أصابعه عليها فى حنان دافىء .
أراد أن يخرجها ليقبلها .سيشم عطرها بعد قليل . رائحة
الشهوة والعمر . وعيدان الحطب خيل الفرسان. وسيوف
الوهـــم حديث عن الشاطـــر حسن ، حارب الغــــول .
قطع أصابعه الأفعوانية وفقأ الألف عين واقتلع المائة ناب
المسنونة . تسلق الجدار مستعينا بضفيرتى ست الحسن
والجمال ، صعد إليها من الطاقة الوحيدة فى القصر المسحور
وهبط بها على حصانه الأشقر . كان الطريق محاطاً بالزهور .
رائحتها رائحة العطر الجاثم بين أصابعك . الخطوات السريعة
تقرب المسافة وتزيد الأشواق . أخذ عمه منه شقاء سنوات
عمله العشر ، مهر ست الحسن ، دفع عنترة مهر عبلة مائة
ألف ناقة بيضاء ... عمه غير عم عنتره ، طلبت منه زجاجة

العطر فى اجازته السابقة . مالت نحوه ، فغاب فى رائحتها الأنثوية ، تهدج صوته ؛ أراد أن يسافر المدينة فى التو ليحضر لها العطر . أجلسته بجذبة رقيقة . نامت أصابعه على كفها واستكان بين عينيها .

أنعشت نسائم آخر الصيف مشاعره والطريق إلى منزله يخترق القرية من أول الطريق حتى نهايته . سافر مدناً كثيرة ، ومارأت عيناه فى جمالها . طمأنه عمه إلى أن زفافهما بعد خروجه من الجيش ، له سنتان وتبقى واحدة وتصبحين جنتى ووعدى ، سيعيد طلاء حجرته ، وعده عمه بسرير ودولاب وسيشترى هو بضعة مقاعد ، ربما انتريه . وتستقبله فى ثوب النوم الوردى وصدرها البكر يعلو ويهبط وبقايا النوم وسن ساحر وكنوز الأرض تعرش فى شفتيها .

وانتهى الطريق إلى الساحة المنبسطة ، جرن القرية وملعب الصغار ، وساحة الأفراح والمآتم . المنزل يطل على الساحة من منتصفها . بشارة خير . كانت الساحة مرشوشة بالماء وقد تناثرت عدة مقاعد وبضعة لمبات كهربائية تنتظر تكتكة مولد الكهرباء والأولاد هنا وهناك يتواثبون فى مرحهم الأبدى . ترى فرح من هذا . لايذكر أن الأخبار التى لديه منذ شهر

كانت تنبىء بفرح قريب . على كل بشارة خير . أمامه عام بأكمله . عام من الحرمان والأشواق والأحلام . عبر الساحة ، أصبح الآن قبالة منزله . حيرته المفاجأة وألجمته ، لمن ياترى هذه الزينات ؛ هل يعقل أن يتزوج عمه ، وبمثل هذه الزينات . الرجل فقد زوجته من سنوات ، ولاتزال به بقية تمكنه من تحمل المسئولية ، لكنه لم يبد من قبل رغبة فى زواج . اقترب قليلا من باب المنزل ، كان الباب مفتوحاً وظهر المدخل يموج بالحركة . اختلطت النساء بالرجال . كلهم مشغولون والزغاريد تهزه وتهز المكان ، تردد فى الدخول انتشله صوت عمه آتيا من الخلف ، استدار بكامله ، جذبه الرجل برفق ، وضع يده على كتفه بحنان مصطنع .. كل شيء نصيب ، والعقبى لك . لاتعكر صفو الليلة ... ياشياطين السماء والأرض ، عم عنترة جاء من جديد فى عصر الغدر الخائن . عبلة أصرت على عنترة ، ولماذا وافقت على خذلانه ، وزجاجة العطر وأيام الشوق ، جلس على الأرض مستنداً بظهره على جدار البيت . جدار عصر الحب ولعبة العريس والعروس ومنزل الطين وعروسه القطن وسيف أبى زيد . قبضت أصابعه على زجاجة العطر ، أخرجها ، قربها من صدره ، صعد بها إلى فمه . فضها . سكبها على الأرض . قذف بالزجاجة الفارغة بعيداً ... غداً يوم آخر .

حجرة فى الطابق الثالث

أشعلت سيجارة مستغرقاً فى تأملات عريضة ... كانت بالخارج ووصل إلى مسمعى صوت صنبور الماء بالحمام. وبسمة رضا تنعش الذكريات. وعلى باب الحجرة وقفت متثنية. تفحصها من أسفل لأعلى، ومن أعلى لأسفل. مسحت عيناه ملامحها. تسمرت للحظات فى محطات مرصودة. بدت فتنة الثلاثين تتحدى المكان والزمان، وتتمرد على الثوب الخانق. غرقت فى بحر من النشوة وانساب الخدر الناعم ونهضت الذكريات عالماً من السحر والبخور وأطيافاً من الشام واليمن والمغرب والعراق. تسبح مآذن القصور فى بخور العود الهندى وتقرع الطبول الأفريقية، وتتجاوب فى الأنحاء صيحات حيوانات الغابة. تتوسد رأسى

واحة ناعمة الظلال ... أين ذهبت ... ليس بعيداً ونظرتى لم تتحرك عن موقعها . نظرت اليهما فى خبث ودلال . ألم ترتوى بعد ... بى ظمأ العالم ونهم لايشبع . فتحت لى الأبواب المغلقة ، فـدلفت إلى عالم السر شاهراً سيفى وتعاويذى . أغمضت عيناى فتداخلت المرئيات . بلورات بلون الطيف وتلال وأودية ، أزعق فيها فتردد صياحى الأشجار العملاقة . أقفز بينها وأعض بأسنانى فى وحشية نهمة ، أشجار الغابة سيقان ملفوفة ، هاهى الجنة ... الجنة ... جنة ماذا . فتحت عيناى على صوتها المعجون بالشهوة ... ياسيدة الجنة والجحيم ، يامن تقطنين الشقة التاسعة بالدور الثالث ، قادنى السمسار إلى الحجرة الشاغرة فى شقتك ، تستعينين بايجارها على الحياة . حططت رحالى عندك طفلا ضائعا فى زحمة المدينة ينشد الراحة والاطمئنان ، لايقوى على الوحدة . غزوت عالمه البكر بشهوة لاترحم . من يومها والنار تتوهج داخله شعلة بركانية لاتعرف التوقف .

يوم أن جئت الشقة أول مرة ، أثر فىّ حزنها الصامت وطفلتها الصغيرة وحديثها عن زوجها المرحوم ، وثوبها الأسود الهادىء. والطيبة الفطرية تغطى وجهها بشفقة ساكنة. كان كل شىء فى المنزل ساكن ونظيف وطفلتها الصغيرة قابعة بين

مقعدين تحتضن فى حرص دميتها وتتطلع إلىّ بنظرات متلصصة . ربت على رأسها بحنان فارتجفت مذعورة وفرت إلى غرفة أوصدتها على نفسها . وتوالت الأيام لا أبرح غرفتى الا للضرورة أو للخروج من الشقة ، ونادراً ماكنت أراها والطفلة . كان يغلفهما سر صامت احتميتا خلفه ، ولم أفكر فى أن أدس بأنفى فيه .

وجاء الصيف حاراً رطباً فتطلب الثياب الخفيفة ، رأيتها بها بضعة مرات ، لكنها كانت متمسكة بتحفظها مع كثرة ترددى على الصالة التى تتوسط الحجرات . باءت كل محاولات التقرب إلى الصغيرة بالفشل . كانت دائمة الذعر . خائفة من شيء مجهول ، وتعرفت أكثر على ملامح الأم . رقيقة فى صمتها جميلة فى حزنها ، والشاب المعلق على الحائط مات سريعاً فى حادث أليم . ترك لها الهم والمتاعب ومعاشا ضئيلا ، تستعين معه بايجار الغرفة المتطرفة . تبدو جناحاً مستقلا يفصله عن الصالة وسائر الغرف طرقة طويلة فى آخرها الحمام والمطبخ . كانت ترشف قدح الشاى فى سكونها المعهود ، والصغيرة ربما نائمة فى حجرتها . أتشرب شايا ... إذا لم يكن فيه ازعاج لك . لم تجب . نهضت إلى المطبخ وعادت بقدح آخر . كنت

لا أزال واقفا بالصالة أخذته وجلست قبالتها . لم تجب على عبارات الشكر ومن جديد عادت إلى تأملاتها وقدح الشاى بين يديها . مزيداً من السكر ... لا . شكراً ، وعاد الصمت من جديد ضبطتنى أكثر من مرة متلصصا بالنظر إليها . لم تعلق . نهضنا سويا فى لحظة واحدة . كنت قد فرغت من تناول الشاى . مدت يدها لتأخذ القدح فاحتفظت بيدها ، عربدت النشوة فى أوصالى وأحسست بها جمراً يرتعد . يومها دخلت الغابة شيطانا يسبح فى قرع الطبول وزئير الوحوش . هكذا أشهرت سيفى ولم أقو على اغماده . تفجرت الينابيع وانطلق المارد يعربد فى الزمان والمكان .

كان حلم صباها وبسمة أيامها . فى ظله أحبت كل ما أحبه . ولم تدم أيام السعادة . رحل بين دهشتها الحائرة وتركها وحيدة ساكنة . كان طيبا حنونا مثل نسمة ناعمة .

دخلت بقدم الغرفة بينما لاتزال الأخرى متخلفة حذرة على المدخل. أتريد قدحاً من الشاى ... ذكية فى تلميحاتها . امتدت يدها إلى السيجارة فتركتها ، جذبت نفساً عميقاً وأعادتها إلى أصابعى وبتلذذ عجيب أخرجت الدخان من أنفها وفمها ... تمت المعجزة بسرعة ، هرولت على أثرها إلى غرفتها

واختفت فيها لبضعة أيام ، انتظرت رد الفعل ولم استطع أن أتنبأ به مقدماً . قابلتها بالصالة بعد أسبوع ، لم تنظر إلىّ . عندما احتوتنا الغرفة والفراش للمرة التالية رجتنى بحزنها المعهود أن أترك الشقة وابحث لى عن سكن آخر ، فالندم يقتلها ولا تستطيع النظر فى عين طفلتها ولا فى عين المعلق على حائط الصالة . لكنى لم أترك الغرفة أمام نظراتها المتوسلة ، فقد كانت تضمنا كل مساء . فى صمتها المعهود غيرت اللون الأسود وارتدت ثياباً ملونة ، واختفت الصورة المعلقة وزاد الجفاء بين الصغيرة وبينى . دائما تفر من أمامى مذعورة كلما شاهدتنى . زحف الليل المعهود بين قدحى الشاى الساخن ، وتنفست رائحة أنوثتها المسكرة ، وقعقع الفراش مع دقات الطبول الافريقية ورائحة الجاو والصندل وزئير الجوع . عندما نهضنا كانت عينان صغيرتان تحملقان فى دهشة . انفلتت مذعورة أمام عرينا . لم يبد عليها ارتباكى ، وعادت إلى الفراش .



النهـــــاية

تقاطر الناس لتقديم العزاء . كان السرادق يبتلعهم واحداً واحداً ، بينما تحلقت الهوام حول لمبات الكهرباء فى دوائر لاتنتهى . اندس بينهم . عندما جاء دوره لتقديم العزاء ، أسلم كفه للواقفين وهو يتمتم كما لو كان يريد أن يقول شيئا . انتهت كفه من أداء دورها . أدرك أنه لم يعد هناك مايتطلب مدها . جذبها ببطىء إلى جانبه وتوغل فى داخل السرادق يلتمس مكاناً منعزلاً .

كانت الأحذية المتراصة إلى جانب زوجين زوجين تصنع مشهداً مثيراً . فيها من التنوع ما فى سحنة أصحابها . أمامه مباشرة تدلى حذاء كالح اللون يتوارى خجلاً خلف أرجل المقعد بينما أمتد زوج من الأحذية السوداء اللامعة بلون الليل

فى حركة استعراضية . تنحنح الشيخ واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وحذاؤه ذو الرقبة اللميع فاغر فاهه يتطاول وبمقدمته فى مواجهة الحاضرين ، وجاءت السملة بداية هادئة وقورة والحذاء المجاور مفكوك الرباط فى حركة غير مهتمة ... ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ، ومن فى الأرض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » ... تتابعت همهمات الاستحسان . الذى لاشك فيه أنهم لم يفهموا حرفاً واحداً مما سمعوا . شدهم الصوت والايقاع ... ترى متى يحدث هذا . صعق من فى السموات ومن الأرض ... إنه الموت ، سيد الوجود ومطلقه . وفى لحظة ماستفقد الحياة ، كصاحبنا هذا وسائر من رحلوا . تذهب إلى أعماق السكون والصمت . الثالث شبشب مكشوف الوجه من الجلد الأحمر . أحاطت سيوره الجلدية بوجه قدم مفلطح مغبر . ماذا لو استطاع أن يقيد هذه الأحذية إلى بعضها . سيكون مشهداً مثيراً بلاشك ... وحذاء الشيخ على السجادة متفرداً قائما بمفرده ... وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون » ، وعلت همهمات الاستحسان بين تجويد الشيخ ... ما أجمل الحياة حتى وإن لم تتمتع بها . من الناحية الأخرى يبدأ حذاء

أسود لايلق الاهتمام المطلوب . هل يمكن أن تتوقف الحياة والموت عند هذه اللحظة . لاتلد النساء ، ولا يموت الأحياء . لن تخاف بعد ذلك الفقر أو الجوع أو المرض ... ولا شأن إذن لنا بالنعيم أو الجحيم . فى هذه الحالة لا أرى مايستدعى الحكومات ومهامها ، وليصنع من شاء ماشاء . أعتقد أنه من الأفضل أن يظل كل منا على حاله ، الطفل طفلاً والشاب شاباً والشيخ شيخاً وهكذا . هذه هى المدينة الفاضلة التى لم يتصورها أحد .

والحذاء الثانى من الكاوتشوك يمتد فى رشاقة شابة دائم الحركة . لايتوقف.وحذاء وحذاء ... صفوف من الأحذية لاتستطيع أن تعثر بينها على شبيهين . يبدو أنه لا وجود للأشقاء بين الأحذية ... ومن الممكن أن يكون العالم كله دولة واحدة ، يرأسها كل واحد بالتناوب لمدة ، ثلاثة شهور مثلا . ربما أكثر قليلا . وتكون رئاسته رئاسة شرفية ، بلا قوانين ، لا سلطة تشريعية ولا سلطة تنفيذية ولا سلطة قضائية . لكل فرد الحرية المطلقة فى أن يفعل مايشاء . واختيار الرئيس بالقرعة من بين الذين لم يصلوا إلى مقعد الرئاسة . لا أعتقد أن هناك ضرورة لتاج الرئاسة ... يمكن

استبداله بحذاء الرئيس . فى يوم ما ستصبح رئيس العالم ، حتى وإن بقيت لنهاية العدد . فالرئاسة مضمونة . رئيس العالم فى حذائه الجديد ، حذاء الرئاسة ... توقفت نظرته على مقدم حذائه . كان مقززاً ، بالياً شاحباً . ابتسم فى سخرية مريرة ، ... وعاد صوت الشيخ إلى ايقاع البداية ... صدق الله العظيم ... لقد أنهى ... وتحركت الأحذية متجهة صوب مدخل السرادق ... عليه أن يتحرك معهم ... إنها النهاية بلاشك ... وتحرك حذاؤه هو الآخر .أخذ مكاناً بين الأحذية الواقفة متجها إلى الخروج .

* * *

رحلة منتصف الليل

كم الساعة الآن ... لا تدرى كم الساعة الآن . منذ وقت طويل وأنت تسير هكذا ، بين الطرقات وعند المنعطفات . لاشيء سوى فراغ الشارع والعمارات الشاهقة . هذا يعنى أن الوقت متأخر . ومحطات الترام ، خلت هى الأخرى من المنتظرين . كأنه لا أحد سواك . عملك لايبدأ الا مع انتصاف الليل ، تجوبين الشوارع تلتقطين رزقك . مع تباشير الصباح تعودين لغرفتك ، تقضين النهار بأكمله فى النوم . كل ميسر لما خلق . وأنت لاتعرفين سواها . تدخلين الطمأنينة على قلوب الرجال فيعودون هادئى الأنفس . والثمن زهيد لايذكر . طواف الليالى ثمن المأوى والطعام والملبس . كل لما خلق . من يأكل بلا تعب ومن يأكل بعرق جسده ، وأنت

تأكلين بعرق فخذيك ... والشتاء على الأبواب والعمل فيه ضعيف والرزق قليل . ولم تدخرى كثيراً من جولات الصيف ، تحتاجين إلى حذاء جديد وثوب شتوى أو اثنين وبعض الملابس الداخلية ، لزوم الشغل . تأكلين بعريك وغيرك يلبس رداء عمل فوق ثيابه ... عوى كلب فى مدخل منزل . زجره بائع الشطائر الذى فى المواجهة . أحسست بوادر جوع . إذن مضى عليك وقت طويل فى تجوالك . نظر إليها بائع الشطائر نظرة غير مريحة . تعودت على هذه الأمور ، ولابد من تصنع عدم المعرفة ... يافتاح ياعليم . أيريدها أن تنصرف . إنها بحاجة إلى مايؤكل . مدت يدها بالنقود . رفض أن يلمسها ، ناولها شطيرة ورجاها أن تنصرف بها .

كان يمكنها أن تتشاجر معه ، وأن ترد اهانته . وجدت أن الأمر قد لايستحق ، فسيان هنا أو هناك . تجيدين شتى فنون الممارسة . نعم فنون ، وليس كله عند العرب صابون ، ومع هذا فالرزق قليل ووجوه الانفاق كثيرة . صحيح أنها ليست مسئولة عن أحد ولم تكن عليها التزامات فى يوم من الأيام لكن مايأتى يذهب . نقود ملعونة ، مع أنها تبيع أغلى السلع . كانت تؤانس وحدتك ، وكثيراً مالازمتك جولاتك الليلية .

كنتما سوياً فى كل شىء . لكنها نجحت مؤخراً فى العثور على زوج . وتركتك فى الغرفة وحيدة ، وأيضا فى الجولات الليلية . رحلات صيد الرزق . كانت شاطىء حنان . تكبرك بسنوات قليلة . هى التى قادتك إلى الطريق . عرفتك الدروب والمساومة والفراسة فى النظر إلى الزبون . أفضل من الخدامة فى البيوت . هناك لاتحصلين على المقابل . والآن كل شىء له ثمنه . والشارع الرئيسى طويل عريض تعبره السيارات مسرعة . وفى انتظار سيارة تتلكع إلى جوارها وقفت تقضم الشطيرة . هل تستطيع أن تعثر على زوج مثلها ، تنام الليل وتجهز بيتها بالنهار . لو كان معها مال مدخر لاشترت زوجاً وبيتاً وراحة بال . كل شىء فى زماننا له ثمن ، حتى ... بدأت النسمات الباردة لليل آخر الصيف تداعب وجهها ، تحتاج إلى شال جديد مع الشتاء . والسيارات تمرق مسرعة . أما من واحدة تتلكع . انتهت من شطيرتها . ألقت بالورقة التى تغلفها إلى الأرض . هل تعود الليلة إلى غرفتها خاوية . بضاعتها حاضرة ولاتجد المشترى .

أحياناً كانت تمر عليها ليالى كهذه ، فالشغل ليس مضمونا كل ليلة . كان من الممكن أن تعمل من خلال سمسار . يتولى

كل شيء ، لكنه يأخذ الكثير . هكذا نصحتها منذ أول ليلة مارست فيها العمل . هؤلاء السماسرة لا رحمة عندهم ولا قلب ، يأخذون كل شيء ولايبقون سوى القليل . يقولون انهم يتولون كل شيء.نشاطها المحدود . الا يمكن أن تسوق لها الأقدار رجلاً يقتنع بها . يغفر لها ماضيها . بها رغبة أكيدة فى أن تخلص له وأن تحافظ عليه . كثيرات وفقن إلى زوج قبلها ، وكثيرات فشلن . ومحطتها بين هؤلاء وهؤلاء . والحياة قاسية ومكلفة . كل شيء فيها يحتاج إلى المال . هل كانت خدمة البيوت أفضل ، لكنها لم تكن تؤجر على عملها الاضافى . كان بلا مقابل والآن تأخذ المقابل ولا تخدم أحداً. تلبس أفضل وحريتها أكثر . لكنها لاتدرى أى الحالين أفضل . والحجرة أصبحت كئيبة وموحشة . تعودت عليها والآن تركتها وحيدة ، تعود إلى الغرفة بعد انتهاء العمل منهكة متعبة ، ترتمى على الفراش بثيابها . تستيقظ قرب غروب الشمس منتفخة العينين مجهدة ، تكاثرت التجاعيد حول رقبتها وأسفل عينيها . تحاول اخفاءها قبل الخروج بالمساحيق والعطور ، وعندما تغسل وجهها ينتابها القلق من الأيام المقبلة . ماذا تحمل لها الأيام . بدأت تشعر بالبرودة وفقدت الأمل فى العمل هذا المساء . قليلة الاختلاط بالجيران ، لكنهم

سألوها عن عملها ، ترددت قبل أن تخبرهم أنها تعمل بالتمريض فى مستشفى . تفضل نوبات السهر . أليس ماتعمله يدخل فى باب التمريض أيضا . لم تكذب عليهم إذن ، وإن بدا عليهم عدم التصديق . لكنها لم تهتم . علمتها الأيام أن لاشيء يهم . وصل إلى مسمعها صوت أقدام تسير . أخيراً جاء الفرج ، ربما . استعدت ، وأصلحت من شأنها قليلاً . توقفت فى انتظار من يجيء وأظهرت عدم اللامبالاة ... مساء الخير ... أتاها الصوت من الخلف . فيه ثقة المتأكد ... ودون أن تلتفت ... مساء الخير ... هيه ، كيف حال الشغل .

كان لابد من النظر إلى الخلف هذه المرة ... عسكرى الدورية . إنها ليلة كئيبة بلاشك ، كآبة رداء العسكرى وملامحه الجشعة ... كما ترى .

نظراته لاتبشر بخير ، وليس معك ماتصرفينه به ... ليس معى نقوداً ، فلم يأتنى عمل الليلة بعد ... لايهم فالخير كثير . ماذا يقصد هذا الغبى . خمنت انه ربما ... أزاحت الفكرة قليلاً ، لكن نظراته النهمة طاردتها باصرار ولن تستطيع أن ترفض له طلباً . أدركت منذ بداية الليلة أنها ليلة مجدبة وهاهى توشك على أن تنتهى على نحو مفجع . هل تقول له إنها لاتقدر الليلة ، فعندها مانع أدبى ، وهل سيصدقها ، وإذا صدقها فهل

سيتركها . تشاءمت من الليلة ولم تستطع الهروب . يامن ينقذنى من أصابع الشاويش . سأكون ممتنة له باقى الدهر . وهل سيتركنى لحالى . لا أظن ، فهو مصر بسنى عمره . الجنس جزء من الحياة ، قالها مرة لك أحدهم ، كان يريد أن يبرر رغبته فى الا يدفع ثمنا . لكنا ندفع ثمن الحياة ، حتى الهواء الذى نستنشقه والماء الذى نبتلع به مرارة الأيام . وهذا مبدأ الشاويش بلاشك . الجنس جزء من الحياة .

استدرت بكاملك تواجهين ملابسه الرسمية . تنقرين الأرض بمقدم حذائك . إذن ، اشار إلى مدخل العمارة . لم تستطع الرفض . تقدمته ، هكذا تنتهى الليلة . بلا مقابل . ووجهه المتجهم لاينم عن انفعالات من أى نوع وصوت أنفاسه تلاحقها . وفى مدخل العمارة الذى بدا مهجورا من معالم الحياة أفرغ رغبته . لاحقها اشمئزاز لم تعهده من قبل أسلمت له نفسها وهى تدارى وجهها . افترشت معطفه الرسمى . نهض فى حركة آلية . أعاد ثيابه لما كانت عليه . نهضت متثاقلة . سوت ثيابها . لم يعد أمامها غير العودة إلى غرفتها . تناول معطفه وأسرع خارجاً . والطريق إلى الغرفة مفعم بالمرارة والأسى . هكذا تنتهى رحلة الليلة .

★ ★ ★

الخـــوف

أوصدت السيدة الكبيرة باب الشقة . خرجت هى وأولادها . تركتها فى الشقة بمفردها . حذار أن تقتربى من شىء . لاتقتربى من الغرف أو المطبخ . امكثى هنا فى مكانك حتى عودتنا . إن لمست شيئا سأقطع رقبتك . ستغدين بلا رقبة . كان جدى العجوز عائداً قرابة الفجر من سهرة له ، فى طريق المقابر أحاطت به عشرات من ذوى الرؤوس المقطوعة . تحلقوا حوله ، كلما تقدم خطوة هرولوا مئات الخطوات ثم يعودون إليه فى أقل من لمح البصر . كان قلبه قويا ، عرفهم لأول وهلة . جلس على الأرض ، لست مستعجلا ، وأخرج علبة سجائره ، وهذه جلسة. أشعل عود ثقابه فاختفوا . الأمر سهل إذن . ليس معك ثقاب . أخذت

الأطفال ولم تترك معها أنيساً ، والشقة مغلقة والصالة واسعة واسعة . تنظر إليها من عينيها الغائرتين المرتعشتين دائما . كل شيء فيها ساكن صامت . المقاعد الضخمة والمنضدتين الكبيرة والصغيرة والسجادة التي لم تستطع حملها . هل تستطيع الجلوس على أحد هذه المقاعد . لقد حرمت عليها السيدة الكبيرة الجلوس فوق السجادة . تقول إن جلستها تفسد صوف السجادة . مكانها بين مقعدين على أرضية الصالة . والأرضية بلاط يلسعها ببرودته . تداخلت فى نفسها . دفنت رأسها بين ذراعيها النحيلتين. رأسها يضغط رقبتها فى رعشة مستمرة . والثوب فضفاض تغوص بداخله . كان ملكا للسيدة الكبيرة . من شهرين فقط كانت تتقافز فى جرن قريتهم . تحتضن أشعة الشمس وتطارد المخلوقات السابحة فيها . لم يضربها أحد فى حياتها إلا بعد أن جاءت من القرية . تضربها السيدة الكبيرة والسيدة الصغيرة والسيد الصغير . تقول للجميع ياسيدى ، هذا ماعلمته لها السيدة الكبيرة . والصاحبات ولعبة « السيجة » والهرولة خلف حصان العمدة. وتسلق شجر التوت وركوب الحمار .

علمتها السيدة الكبيرة كيف تكنس الشقة وتمسحها ،

وتشترى بعض الأشياء الصغيرة من المحلات المجاورة . هنا أيضا أطفال يلعبون الكرة كما فى القرية ويتشاجرون ويتصالحون أيضا . لكن الحلوى هنا كثيرة ، أشكالها عديدة ، لم تتعرف فيها وهى بين أيدى الصبية على حلوى القرية . الأولاد ، أبناء السيدة الكبيرة يلعبون هم الآخرون ، ولكن مع بعضهم . كلما اقتربت منهم نهروها وضربوها أحيانا .

تحركت المنضدة الصغيرة . إنها متأكدة من هذا . ارتفعت حتى لامست السقف . العفاريت تأخذ الصورة التى تريدها ، منضدة ، مقعد أو غيرهما . تشبثت بذيل الثوب . غرست أصابعها النحيلة فيه ، وانزوت داخل نفسها . كانت تريد أن تدخل المدرسة ، رفض أبوها ، فالمدارس تفسد البنات والتعليم مضرة . أخذها من حضن عروستها القش وأحضرها للسيدة الكبيرة . قال لها ياهانم ، رأته بعد ذلك مرتين ، مرة كل شهر تعطيه السيدة الكبيرة نقوداً كثيرة وتوصيه بالسمن والجبن ، يدعو لها وللبهوات الصغار وللسيدة الصغيرة ، ويوصيك بالطاعة والأمانة . يقولون إن أباك مات بعد ولادتك وأخذ هو مكانه . تناديه أبى ، هكذا علمتها أمها . فى المرة الأخيرة تشبثت بذيله واستحلفته بمقام سيدى عطوة أن

يأخذها معه ، فلا أحد يحبها هنا دفعها بعيداً مهدداً . سألته عن صاحباتها ، لم يهتم بالاجابة وانسحب وهو يدعو للسيدة الكبيرة بطول العمر والصحة . يومها بكت كثيراً رغم ضرب السيدة الكبيرة ، وتهديدها بحبسها فى الغرفة المظلمة .

فى الغرفة المظلمة فئران كثيرة وعفاريت لهم شوارب ضخمة مثل قرموط السمك الذى رأته بطول الصباد . يقولون إن العفاريت تصطاد معه ليلاً فهو يصاحبهم . كلما اصطاد سمكة ، اصطادوا هم عشرات ، يعود آخر الليل وقفته ملآنة بالسمك . أهل القرية يخشون الاقتراب منه أو الشراء . يقولون إن سمكه ينط من فوق النار ويتكلم . يبيعه فى المدينة . أهل المدينة لايعرفون قصته مع العفاريت . هل تستطيع أن تصاحب عفريتا صغيراً يلعب معها . تنط معه الحبل ، ويلعبان عروسه وعريس . تركت عروستها المحشوة بالقش فى القرية. أرادت أن تحضرها معها ، لكن أباها رفض . قال لم يعد لديها وقت للعب . سيأخذ الشغل الجديد كل وقتها . لكنها محتاجة إلى عروستها ، تريد أن تتحدث معها . تحكى لها عن السيدة الكبيرة وأولادها . الجميع يكرهونها ويضربونها بلا سبب . لو تستطيع مصاحبة عفريت صغير ، ينقلها فى لمح البصر إلى جرن القرية . تلعب مع صاحباتها .

هل مازالوا هناك يعلبون ، أم أنهم أخذوا إلى سيدات كبيرات يكنسن ويمسحن . السيد الكبير رجل طيب ، لكنها لاتراه كثيراً ، يخرج قبل أن تنهض من نومها ويعود وهي نائمة فى المطبخ . تراه قليلاً يوم الجمعة قبل أن يخرجوا جميعاً ويتركونها فى الشقة . قليل الكلام . قالت لها السيدة الكبيرة لاتقتربى من شىء . مدت أصابعها النحيلة فلامست رجل المقعد . والقطة السمينة تغدو وتروح فى الشقة تلمس كل الأشياء . لم تحاول الاقتراب منها ، فالعفاريت تتحول إلى قطط .

عندما ضربت خالتها القطة التى سرقت طعامهم اختفت شهراً . أخذها ملوك الجان لمحاسبتها عندهم حبيسة شهر بأكمله ، عادت فاقدة النطق قليلة الحركة . لم يفلح معها الزار ولم تنجح أحجبة الشيخ . كبار البلدة يقولون إن العفاريت أرواح المقتولين . الإنسان الخير عفريته شرير ، والانسان الشرير عفريته خير . عفريت السيدة الكبيرة سيكون ضعيفا مسكينا ، وسيطلب الرحمة من عفريتك . اياك والسير هنا وهنا . امكثى ولاتبرحى المكان . والساقية التى فى طرف البلدة تحركها العفاريت كل ليلة ، عفاريت زرق مشتعلة الرأس يطل من عينيها بريق يخطف أبصار من ينظر إليها .

القطة تعلو وتكبر ومن الحائط خرج مارد أزرق أحمر العينين . ركب ظهر القطة التى أصبحت فى حجم حمار العمدة . مد يده اليها ، جذبها ، إلى أين تريدين الذهاب . إلى جرن القرية . وجدت نفسها بين الصغار من جديد ، نطت الحبل وصعدت معهم تلال القمح الذى لم يحصد بعد . وجلسوا يقيمون حفل عرس . هى العروسة . أين العريس ، انه السيد الصغير ، وغنوا جميعاً ورقصوا . نظرت إلى أقدامهم ، كانت كلها حوافر ماعز . صرخت بكل مافيها من فزع . أطلت السيدة الكبيرة من الباب وخلفها أولادها ، وانهال الجميع عليها ضرباً .

* * *

قصص المجموعة

صدر للمؤلف

ابحاث ودراسات :

١ ــ لغة الشعر العربى الحديث	١٩٧٩
٢ ــ اتجاهات القصة القصيرة فى الأدب العربى المعاصر	١٩٧٩
٣ ــ فى مصادر التراث العربى	١٩٨٠
٤ ــ مقالات فى النقد الأدبى	١٩٨١
٥ ــ اتجاهات الرواية العربية المعاصرة	١٩٨٢
٦ ــ فى الأدب العربى المعاصر	١٩٨٤
٧ ــ دراســـات نقدية	١٩٨٨
٨ ــ فى الأدب والنقد الأدبى	١٩٨٩
٩ ــ الرؤيا الابداعية	١٩٨٩

ثانياً : مجموعات قصصية :

١ ــ رحلة منتصف الليل	١٩٦٥
٢ ــ أحزان رجل تافه (اليتيم)	١٩٦٧
٣ ــ ايقاعات حزينة من زمن الموت	١٩٨٢
٤ ــ مشاهد من عام القرية	١٩٨٤
٥ ــ أبواب الجحيم	١٩٨٩

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٨١/ ٨٩